



## مفهوم الألوهية بين المتكلمين وبين ابن رشد على ضوء "الكشف عن مناهج الأرحل"

بقلم : الأستاذ الدكتور : فيصل بدير عبدالله عون

كلية الآداب - جامعة عين شمس

لا شك أن المنهج الذي اتبعه علماء الكلام في مباحثتهم يختلف عن المنهج الذي يعتمد عليه الفلاسفة في معالجة القضايا التي يعرضون لها . إذ من المعلوم (والشائع) أن المتكلمين يعتمدون دائماً على النقل (السمع) بينما يعتمد الفلاسفة في المقام الأول على العقل .... على أن ذلك لا يعنى البتة الفصل ما بين المنهجين .... فكثيراً ما يلجأ المتكلمون إلى العقل (المنهج العقلي) لتأكيد وجهة نظرهم ، إذ لا غنى للسمع عن العقل ، وعلى الجانب الآخر كثيراً ما يتجلى ، ويوضح ، إيمان الفيلسوف من خلال آرائه الفلسفية المعروضة عرضاً عقلياً . الصلة بين المنهجين النقلى والعقلى ، ليست صلة مقطوعة ، رغم أن ثمة فوارق أساسية بين منهج كل من الفيلسوف والمتكلم .

وقد نال المتكلمون من ابن رشد قدراً كبيراً من اهتماماته ومن مطاعته التي وجهها اليهم وتوجّها في نهاية المطاف بكتابه الهام "تهافت التهافت" .

ورغم أن البحث عن فلسفة ابن رشد الحقيقية يقابلها إشكالات كثيرة أهمها في هذا الصدد هو كيفية التمييز بين آراء ابن رشد وبين آراء أرسطو .. ذلكم أن أهم أعمال ابن رشد كلها كانت منصبة على شرح وتفسير وتلخيص الفلسفة اليونانية عامة وأعمال أرسطو بوجه خاص ، ومن هنا صعب كثيراً الفصل بين أقوال ابن رشد (بين ما لإبن رشد) وبين أقوال أرسطو المشروحة أو الملخصة أو المفسرة من قبل ابن رشد أقول : رغم ذلك كله ، فإنه ليس من العسير أن يكتشف المرء أثر المتكلمين على ابن رشد رغم أنه هاجمهم هجوماً عنيفاً . فثمة فلاسفة كثيرون أفادوا ممن

سبقهم ، ومع هذا لم ينل هؤلاء السلف من الخلف الا الجحود والتكرار .. انها الطبيعية الانسانية ... تلك التي تسعى إلى أن تقطع يد العون بعد أن تأخذ منها ما تريد.

وفي هذا الصدد سوف نحاول أن نكشف أوجه الشبه والخلاف بين أقول ابن رشد وبين المتكلمين على ضوء كتاب هام لابن رشد هو "الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة ، وتعريف ما وقع فيها بحسب التؤول ، من الشبه المزيفه والعقائد المضلة إذ أن القارىء لهذا الكتاب سوف يدرك ، بغير صعوبة ، أن نفوذ المتكلمين على ابن رشد كان قويا ، وأنه رغم هجومه العنيف عليهم ، الا أن ذلك لا ينفى البتة الصلة الفكرية بينه وبينهم . فخصوصية الفكر لا تعنى القطيعة الفكرية ، بل انها تتضمن ، من جملة ما تتضمن تأثير المفكر بمن سبقه سواء كان هذا التأثير سلبيا أم ايجابيا ، وسواء كان سلبيا فى جهة وايجابيا فى جهة أخرى . انه يصعب علينا تصور أن يحيا ابن رشد بين المتكلمين وأن يقرأهم وأن يعانى منهم (ومن الفقهاء) أحيانا ، ثم لا يتأثر لهم .

إننا من خلال القراءة المتأنية لكتاب الكشف عن مناهج الأدلة ، أدركتنا أن ثمة صلة قوية بين المتكلمين وبين ابن رشد ، لم يستطع من خلالها أن يفلت من نفوذهم أحيانا ومن ثم تأثره بهم ... رغم أنه قد فند أقوالهم فى غير موضع . ولعل عرضنا لمشكلة الألوهية بين ابن رشد وبين المتكلمين ، بشىء من الإيجاز ، يؤكد ما تزعمه فى هذا الصدد .

## ١ - أدلة وجود الله :

ثمة أدلة كثيرة طرحها المتكلمون والفلاسفة لتأكيد الوجود الالهى والاستدلال عليه . ولعل أهم هذه الأدلة : الدليل الكونى ، الدليل الخلقى ، الدليل الغائى ، الدليل الأنطولوجى ، دليل الحركة والمحرك ... الخ كل هذه الأدلة وقف عليها ابن رشد ، لكنه فى نهاية المطاف إنتهى إلى أن ثمة دليلين قاطعين على وجود الله .

أحدهما هو دليل العناية ، والآخر دليل التمتع .

#### أ - دليل العناية :

يرى ابن رشد ان دليل العناية يعد من أهم الأدلة التي يمكن الاطمئنان اليها كشاهد يقيني وحق لاثبات أن الله موجود . وهو في هذا الدليل يرى أن الانسان سيد الكون وانه اكمل المخلوقات واشرقها وافضلها ، وانه وحده قادر على تحمل المسؤولية والامانة وهو هنا ينظر إلى الكون نظرة غائبيه ، بمعنى ما . فكل موجود يسعى نحو هدف معين . وكل ما على الأرض مسخر لخدمة الانسان . ليس هذا فقط بل أن وجود الانسان نفسه بصورة معينة وباعضاء كل منها له دوره الخاص . كل ذلك في رأى ابن رشد يمكن أن يؤدي إلى وجود الله . وابن رشد يذكر أن دليل العناية هذا يبنى على أصليين رئيسيين :

١ - ان جميع الموجودات التي في عالمنا هذا موافقة لوجود الانسان .:

٢ - ان هذه الموافقة لم تأت بالصدفة . أقصد بطريقة عشوائيه ، بل انها مدبرة من قبل كائن قادر عليم حكيم .

فقيما يتعلق بالاصل الأول يرى ابن رشد أن وجود الليل والنهار وتعاقبهما ووجود الفصول الأربعة بترتيب معين لا يحيد عنه ويزوغ الشمس والقمر في أوقات محددة ، ووجود البحار والانهار وعدم اختلاط هذه بالأرض ، أو عدم تقطيعه الأرض لها .. كل ذلك لا يمكن أن يكون حاصلًا عن الصدفة ، لأن الصدفة إن أنتجت مرة أو مرتين أو ثلاث فأنها لا يمكن أن تكون قاعدة عامه أو نظامًا كونيًا صارما لا يتغير ولا يتبدل . وهذا النظام الكوني لا بد ان يكون له منظم اوجده على صورته هذه ، وعلم دقائقه وادرك الغاية منه . وهذا المنظم الحكيم لا بد أن تكون له صفات تليق به (سوف نعرض لها حالا) .

## ب - دليل الاختراع :

وفى هذا الدليل اعتمد ابن رشد على طريقة المتكلمين رغم انه هاجمهم ورفض اتجاههم لكن ذلك الرفض من جانبه (ومورفض مفهوم) لا ينفي الحقيقة القائمة القائلة بانه قد افاد منهم . ذلك أن خصومة الآراء والأفكار تختلف عن خصومة الأشخاص . فقد استطيع ان اثبأ وان اقطع صلتى الشخصية بزيد او عمر من الناس ، لكن من المستحيل ان اقطع صلتى الفكرية به . ومن هنا فأن هذا الدليل دليل الاختراع يستند إلى رأى المتكلمين فى أن العالم مكون من جواهر واعراض والاعراض الحادثة . ومن المعلوم ان الجواهر لا تخلو من الاعراض أى لا تخلو من الحوادث ، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث . أى أن العالم محدث ، والمحدث المخترع لابد له من مُخترِع مُبدِع هو فى النهاية الله . كما أن هذا الدليل يستند إلى ما ذهب اليه الاشاعرة من ان الانسان أو الموجود أيا كان لا يستطيع ان يُوجد لنفسه أو ينقل شيئاً من العدم إلى الوجود أو العكس . ويقول الأشعرى : "ان الانسان يولد طفلاً ثم يصير شاباً فكهلاً ثم شيخاً" وقد علمنا انه لم ينقل نفسه من حال الشباب إلى حال الكبر والهرم . لان الانسان لَنْجَهْدَ أَنْ يُزِيلَ عَنْ نَفْسِهِ الْكِبَرَ وَالْهَرَمَ وَيُرْدِيهَا إِلَى حَالِ الشَّبَابِ لَمْ يُمْكِنْ ذَلِكَ . فدل ما وصفتنا على انه ليس هو الذى ينقل نفسه فى هذه الاحوال وان له ناقلاً نقله من حال إلى حال ودبره على ما هو عليه .. ومما يبين ذلك ان القطن لا يجوز ان يتحول غزلاً مقتولاً ثم ثوباً منسوجاً بغير ناسج ولا صانع ومن اتخذ قطناً ثم انتظر ان يصير غزلاً مقتولاً ثم ثوباً منسوجاً بغير صانع ولا ناسج كان عن المعقول خارجاً وفى الجهل والجان<sup>(١)</sup> .

نعود فنقول ان ابن رشد افاد من ذلك كله ونسج منه خيوط دليل الاختراع

لديه مبيناً أن دليله يعتمد على أصليين :

(١) أبو الحسن الأشعرى : كتاب اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع ص ١٧ وما بعدها - نشرة

حموده نغرايه - مكتبة الخانجى - القاهرة ١٩٥٥م وراجع كتاب الانصاف للباقلانى ص ٢٢

١ - ان هذه الموجودات مخترعه .

٢ - ان كل مخترع فله مخترع . ويضيف : فيصح من هذين الاصلين ان للموجود فاعلاً مخترعاً له . وفي هذا الجنس دلائل كثيرة على عدد المخترعات (١) . فهو يرى ان شمة موجودات في عالمنا هذا تخرج كل يوم إلى الوجود . ومن المستحيل أن يُخْرِج الموجودُ نفسه لان هذا يفترض انه سابق في الوجود على نفسه . ثم اننا نشاهد أجساماً جمادية ، وهذه الاجسام تحدث فيها الحياة ولا يمكن للجسم ، من حيث هو جسم - أن يُحدث في نفسه حياة .. وهذا يتضمن ضرورة وجود موجود حي وبه الحياة .. الخ - على ضوء هذين الدليلين سعى ابن رشد إلى تفسير جميع الآيات التي توحى بذلك أو التي يمكن ان تسعفه في تأكيد رأيه . من هذه الآيات التي تتضمن دليل العناية :

"ألم يجعل الأرض مهاداً والجيال أوتاداً" (٢) .

"تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً" (٣) .

"قلينظر الإنسان إلى طعامه" (٤) .

أما الآيات التي تتضمن دليل الاختراع فمعناها :-

"قلينظر الإنسان مما خلق ، خلق من ماء دافق" (٥) .

"أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت" (٦) .

(١) ابن رشد : الكشف عن مناهج الأدب ص ٦٦ - المكتبة التجارية - القاهرة ٢٤ ١٩٢٥ م -

١٣٥٢ .

(٢) النبأ : ٦ .

(٣) الفرقان : ٦١ .

(٤) عَبَسَ : ٢٤ .

(٥) الطارق : ٦ .

(٦) الناشية : ١٧ .

"يا أيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له" (١) .

وهناك آيات رأى ابن رشد انها تجمع الدليلين : دليل الاختراع ودليل العناية منها :

"يا أيها الناس اعبثوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم ... فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون" (٢) . فان قوله : الذى خلقكم والذين من قبلكم تنبيه على دلالة العناية . ومثل هذا قوله تعالى "واية لهم الأرض الميته احييناها واخرجنا منها حبا فمنه ياكلون" (٣) . وقوله تعالى : "الذين يتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقتنا عذاب النار" (٤) .

٢ - ابن رشد والوحدانية :

من خلال ما سبق يعتقد ابن رشد انه اثبت اثباتا قاطعا ان الموجودات ، أو بتعبير اشمل العالم ، مخلوق محدث وانه كان بعد ان لم يكن . وهو بذلك انما يريد ان يثبت ان هناك قوة اخرى هى التى اوجدت العالم بما فيه ويمن فيه .

لقد كان على ابن رشد ان يحدد أيضا بالأدلة القاطعة هل هذه القوة التى اوجدت العالم واحدة أم متكثرة . فنحن نعلم أن الفلاسفة اليونانية اثبتت أن هناك مبدأ للوجود : بعضهم ذهب إلى القول بانه الهواء بينما ذهب الآخر إلى القول بالماء وثالث قرر ان النار هى الاصل ... بينما ذهب احدهم (أنباد قليس) إلى القول بان العناصر الاربعة هى اصل الوجود . اما أفلاطون الالهى فقد كان رأيه أن ثمة ثلاثة مبادئ قديمة لا يمكن أن يرد الواحد منها الى الآخرين وهى : الاله ، المادة ثم عالم المثل ، ويحلو لأفلاطون ان يسمى إلهه بـ "الصانع" ، لان فكرة الخلق ، كما نعلم فكرة دينيه

(١) الحج : ٧٣ .

(٢) البقرة : ٢١ .

(٣) يس : ٣٣ .

(٤) آل عمران : ١٩١ .

لم تعرفها الفلسفة اليونانية . اما المعلم الاول فان العالم عنده (شأنه شأن الفلاسفة اليونانيين) - قديم لا أول له ولا آخر .

نعود انن لنقول كان على ابن رشد بعد أن اثبت حدوث العالم وانه حادث من قبل قوة اخرى ان يثبت وحدانية هذه القوة . أى عليه أن يثبت ان الاله واحد لا شريك له فى خلق هذا العالم بموجوداته وهنا يلجأ ابن رشد إلى ثلاث آيات غاية فى الأهمية ، حيث يستنبط منها ادلته العقلية على وحدانية الله (وبلاحظ هنا انه لا تعارض بين العقل والنقل عند ابن رشد) ، وهذه الآيات هى :-

١ - لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا<sup>(١)</sup> .

٢ - ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا ذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون<sup>(٢)</sup> .

٣ - قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذ الابتغوا إلى ذى العرش سبيلا<sup>(٣)</sup> .

فالآية الأولى تثبت انه من المستحيل ان يكون العالم حادثا عن اكثر من اله ، لانه فعلٌ والفعل لا بد له من فاعل قاناً فعل العالم احدهما كان الآخر معطلا . والتعطيل صفة لا يمكن ان يتصف بها الاله . ولا يمكن ان يقال ان العالم مصنوع لاكثر من اله لان من صفة الاله انه كائن مريد والارادة من صفات الكمال كما هو معروف وكل كائن لا بد ان يتميز بارادته . اريد أن أقول ان الاختلاف بين الآلهة ممكن ، والممكن لا بد ان يتحقق والا ما أستحق صفة الامكان . أى اذا سلمنا بوجود اكثر من اله لأدى ذلك إلى صراع بين الآلهة لا بد ان يؤدي فى النهاية إلى انتصار احدهم وهزيمة الاخرين ، فضلا عن ان هذا الصراع يمكن أن يؤدي إلى فساد العالم . ويشير ابن رشد إلى انه لا يصح أن يكون فى المملكة أكثر من ملك واحد

(١) الانبياء : ٢٢ .

(٢) المؤمنون : ٩١ .

(٣) الامراء : ٢٢ .

حيث يكون أحدهما يفعل ويبقى الآخر معطلاً وذلك منتق في صفة الألوهية . فانه متى اجتمع فعلا من نوع واحد على محل واحد فسد المحل ضرورة . ان العالم واحد ولا يجب ان يكون حادثا الا عن اله واحد اتقن صنعه .

ومن رأى ابن رشد انه من غير الممكن أن يكون هناك أكثر من اله بحيث يصنع كل واحد عالما خاصا به . لان ما يترتب على ذلك هو سعى كل اله إلى ان تتميز مصنوعاته عن المصنوعات الاخرى . وفي النهاية سوف يبقى اله الاقوى والاحكم بعاله هو . وباختصار فانتا سوف نصل في النهاية إلى فكرة الوجدانية .

وتشير هنا إلى أن ابن رشد قد افاد مرة اخرى من المتكلمين في صياغته هذا الدليل . فهو بلا شك يعتمد هنا على دليل المتكلمين المسمى دليل التمانع : أى امتناع وجود خالقين لمخلوق واحد . والهين لعالم واحد . فقد نكر الاشعري على سبيل المثال لا الحصر . هذا الدليل في كتابه اللمع على الوجه التالي "فان قال قائل : لم قلت ان صانع الاشياء واحد ؟ قيل له : لان الاثنين لا يجرى تدبيرهما على نظام ولا يتسق على احكام . ولا يد أن يلحقهما العجز أو واحدا منهما . لان احدهما اذا اراد ان يحي انسانا و اراد الاخر ان يميته لم يخل أن يتم مرادهما جميعا او لا يتم مرادهما ، جميعا لانه يستحيل ان يكون الجسم حيا ميتا في حال واحده . وان لم يتم مرادهما جميعا ، وجب عجزهما ، والعاجز لا يكون الها ولا قديما . وان تم مراد احدهما دون الآخر وجب عجز من لم يتم مراده منهما والعاجز لا يكون الها ولا قديما . فدل على أن صانع الاشياء واحد" (١) .

٢ - ابن رشد والصفات الالهية :

كانت مشكلة الصفات الالهية من المشكلات الخطيرة والهامة التي اثرت في البيئة الاسلامية على ايدى المتكلمين . ولقد كان الدافع إلى ذلك في أول الامر العناصر الاجنبية التي ما لبثت أن وجدت صدرا رحبا في الآيات المتشابهات ، وهي

(١) اللمع ص ٢٠ - ٢١ .

الآيات التي يمكن ان توحى بوجود شبه بين العبد والرب .

ونحن تعلم ان المسيحية ذهبت إلى القول بوجود ثلاثة اقانيم متجده مع ان كل اقنوم منها قائم بذاته . فالوجود هو الاب والعلم هو الابن والحياة هي روح القدس . اراد المتكلمون ان ينزهوا الله عن كل ما عداه لدرجة انهم يبعثهم إلى التعطيل فتجد ان المعتزلة قد نفت قدم الصفات - الالهية ، وكان قولها في هذا ان الله عالم بعلم وعلمه ذاته ، قاهر بقدرته وقدرته ذاته ، حي بحياه ، وحياته ذاته ... أي انها قالت ان الصفات عين الذات ، مع أن هذه الصفات متميزه فيما بينها بلا شك .

أما الأشاعره فقد قررت اثبات الصفات الالهيه واثبات أن هذه الصفات قديمه . أما علاقة الصفة بالذات فنذكرت ان الصفات ليست هي الذات وليست غير الذات فالصفة امر زائد على الذات ليس هي وليست الذات هو . كذلك أوضحت الأشاعرة ان مدلول العلم غير مدلول القدره ، غير مدلول الحياه .

ذهب ابن رشد في هذه المسائله إلى موافقة المتكلمين احيانا ومخالفته لهم احيانا . فابن رشد لا يختلف معهم من حيث المبدأ أقصد من حيث ان الله موجود وهو متصف بصفاته . من علم وسمع وبصر وحياء وكلام .. لان هذه الصفات تدل على الكمال وبما ان الله كامل فلا بد ان يكون متصفا بها . لكن ابن رشد يختلف مع المتكلمين تماما في فهمهم للعلاقة التي بين هذه الصفات وبين الذات . فهو يرفض رأى المعتزلة الذي ذهبوا فيه الى ان الصفات عين الذات الالهيه ، وان هذه الصفات حايثه وليست قديمه لانه يرى انه اذا كانت الصفة عين الذات ، والصفة حايثه فينبغي أن تكون الذات حايثه . اصف الى ذلك ان الذات واحده والصفات متعدده ومتباينه ، فكيف تكون كل صفة بمفردها عين الذات . كذلك فان ابن رشد ينكر على الأشعريه رايها في هذا الصدد ، لانه يرى اننا اذا قلنا ان الصفة امر زائد على الذات قائم بها ، وهي في نفس الوقت (الصفة) ليست عين الذات كما انها ليست مخالفة للذات ، لوقعنا هنا في تناقض شنيع . لان الشيء اما ان يكون هو أو لا هو . اما القول ،

بأمر وسط فغير مفهوم . ومن هنا فإن ابن رشد يرى ان المتكلمين جاؤا بأمر منكر فى هذا الصدد ادى الى حدوث فتنة بين المسلمين لم يكن ثمة داع لها . ولا نريد هنا ان نتوسع فى الحديث عن كل صفة من الصفات وكيف ان ابن رشد يكشف عن الآراء المتناقضة داخل كل اتجاه من اتجاهات المتكلمين ويكفى هنا ان نذكر موقفه من مشكلة العلم الالهي مثلا فهي تعكس لنا فهمه للصفات كلها .

يرى ابن رشد ان العلم صفة من الصفات القديمة التى ينبغى ان يتصف الله بها من الازل ولا يجوز ان يتصف بها وقتا . ويرى ابن رشد اننا لا ينبغى أن نتوسع فى فهم العلم الالهي كصفة اكثر من هذا . كما فعل المتكلمون . فليس ثمة داع للقول انه سبحانه يعلم الحوادث بعلم قديم ، لان ذلك يترتب عليه أن يعلم الحوادث قبل وقوعها ويعد وقوعها بعلم واحد وهذا أمر غير مقبول . لاننا نعلم أن العلم ينبغى أن يكون تابعاً للموجود فعلمى ان زيدا حتى غير علمى انه ميت أو اصيب فى حادث . والعلم بالفعل غير العلم بالقوة . فكيف يكون علم الله بأن زيدا فى الدار هو عين علمه ان زيدا قد خرج من الدار أو انه مات . لهذا يرى ابن رشد انه اذا كان لابد لنا من أن نتوسع فى فهم العلم الالهي ، فينبغى أن يوضع كما فى الشرع أنه سبحانه عالم بالشمس قبل أن يكون على انه سيكون وعالم بالشمس اذا كان على انه قد كان ، وعالم بما قد تلف انه تلف فى وقت تلفه . وهذا هو - فى رأى ابن رشد - الذى يقتضيه اصول الشرع <sup>(١)</sup> . وينتهى ابن رشد الى القول انه سبحانه يعلم المحدثات وفساد الفاسدات لا يعلم محدث ولا يعلم قديم .

ومن الواضح أن رأى ابن رشد هنا غامض ومتناقض ومشوش وانه وإن كانت له مبررات وجيهة وطريفه فى رفض رأى المتكلمين ونقدهم الا انه فى النهاية كان أسوأ منهم ان لم يزد عنهم سوما . فهو عاد فى نهاية المطاف قائل لا ينبغى لنا أن نسعى لفهم هذه المشكله ولا نقول أن علمه قديم ام حادث ؟ .

(١) راجع الكشف عن مناهج الأدلة ص ٨٧

على أن الأمر يختلف عن ذلك في فهمه لصفة أخرى من الصفات الإلهية واقصد بها صفة الإرادة . فقد قال ابن رشد : ان الإرادة صفة من الصفات التي يتصف الله بها ، لان من شروط حدوث الشيء عن الفاعل القادر العالم أن يكون مريداً له . لكن ان يقال انه مريد للامور المحدثة - كما يقول ابن رشد - بإرادة قديمة فبدعة و شيء لا يعقله العلماء ولا يقنع الجمهور . بل ينبغي ان يقال انه مريد لكون الشيء في وقت كونه وغير مريد لكونه من غير وقت كونه ، كما قال تعالى : "انما قولنا لشيء اذا اردناه أن نقول له كن فيكون" (١) . لقد اراد ابن رشد أن يقول - وهو الفيلسوف العقلي جدا - ان مشكلة الصفات الإلهية من المشاكل التي لا يسع العقل أن يدلي فيها برأي قاطع . ومعنى هذا انه يرى انها حسالة ايمانيه بحته : أو من بها أو لا أو من . لكن السؤال الآن : هل للعقل دخل في الايمان ام لا يصح لي ان اعقل لكي أو من ؟ .

على كل حال فإن ابن رشد ختم رأيه في هذا بقوله "ان الذي ينبغي ان يعلمه الجمهور من أمر هذه الصفات هو ما صرح به الشرع فقط وهو الاعتراف بوجودها دون تفصيل الامر فيها هذا التفصيل . فانه ليس يمكن ان يحصل عند الجمهور في هذا يقين أصلاً" (٢) .

#### ٤ - ابن رشد والتنزيه الالهي :

انتبهنا الى ان ابن رشد يرى ان الله واحد لا شريك له في ايجاد هذا العالم ، وان هذا الاله متصف بصفات الكمال . وان هذه الصفات ثابتة له سبحانه من الازل . ولقد كان على فيلسوفنا بعد هذا أن يبين أن الله ليس كمثل شيء وان كل ما خطر ببالنا فان الله بخلاف ذلك . أي كان على ابن رشد ان ينزه الله عن كل ما عداه وأن يظهر موقفه من مسألة الجسم الالهي وعن فكرة رؤية الله .

(١) النحل : ٤٠ .

(٢) الكشف عن مناهج الأول : ص ٨٥ .

بيد أن ابن رشد في هذا الصدد يذكر الآيات التي تمثل الدليل النقلى على تنزيه الله . فيذكر هنا قوله تعالى "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير" وقوله سبحانه "أقمن يخلق كمن لا يخلق" وقوله سبحانه "قل هو الله أحد الله الصمد .....". ولما كان الله خالق هذا العالم فينبغى أن نسلم بأن الخالق مختلف عن مخلوقاته بلا شك . لكن هذا الاختلاف لا ينبغى أن يكون اختلافا مطلقا لأنه لو كان اختلافا مطلقا لتمنر علينا الاستدلال عليه من مصنوعات . كما أنه لا ينبغى فى نفس الوقت أن نسوى بين الخالق والمخلوقات من كل وجه والا وقعنا فى تناقض شنيع . هناك إذا أوجه شبه بين الله وبين الموجودات . لكن هناك أيضا اختلافات جوهرية بينهما . فنحن موجودون والله موجود هو سميع بصير ونحن نسمع ونبصر ... أى أننا نتصف ببعض الصفات التى يتصف بها الله .. لكن ينبغى أن ننبه إلى أن صفاتنا توجد لنا على جهة غير الجهة التى هى عليها فى الله . فإذا كان الرسول قد قال "أن الله خلق آدم على صورته .." فينبغى لنا أن لا نبادر فنسوى بيننا وبينه سبحانه فوجودنا غير وجوده تعالى وكذلك الأمر فى السمع والبصر والحياء .. الخ وعند فيلسوفنا أن نفى المائتة بيننا وبينه سبحانه يعنى أمرين :

الاول : أن يعدم الخالق كثيرا من صفات المخلوق .

الثانى : أن توجد فيه صفات للمخلوق على أتم وأفضل بما لا يتناهى فى العقل (١) .

فالكائنات لها بدايه ومن ثم فلا بد أن تكون لها نهاية وهى فى هذا تختلف كلية عن الله الذى لا يموت وما يترتب على ذلك من عدم غفله أو سهو لأنه سبحانه يمسك دائما السموات والأرض وينظم النورات كلها .. إلى آخر هذه الامور التى أشرنا إليها فى دليل العناية .. إذا أول اختلاف بين الموجودات وبين الله هو أنها كائنات مائته اما هو فليس كذلك . أى أنه سبحانه منزّه عنها من هذه الناحية .

(١) الكشف عن مناهج الأدلة من ٨٧ .

على ان الله لما كان متصفا ببعض الصفات المحسوسة ، فهل يعنى ذلك ان له جسما ؟ أم انه لا جسم له ؟ .

نحن نعلم ان هذه المشكلة ليست هينة فى تاريخ الفكر الفلسفى الاسلامى ، ولقد أدلت كل فرقة فيها بدلوها .

فهناك الكراميه التى ذهبت الى ان الله جسم كبير . وقسمت هذا العالم كله إلى جوهر ومجموعة أعراض وجعلت الله جوهر العالم وذهبت الى ان الحوادث إن هى الا الاعراض التى تلحق الجسم الكبير . هذا الجسم لا يخرج عنه شىء : فيه خير وشر ، فيه حياة وموت .. الخ لكن الجسم نفسه لا يطرأ عليه ما يطرأ على أعراضه من تغير وتبدل وفساد ، لان الحوادث يقتضى موضوعا ثابتا يجرى عليه ، وهذا الموضوع هو الجوهر الازلى الخالد .

ولقد سعت الكراميه ، كما هو معروف ، الى الاستدلال على رأيها بآيات القرآن الكريم فنكرت قوله سبحانه "خلقت بيدى" و "السموات مطويات بيمينه" و "بل يداه مبسوطتان" وقوله "تجرى باعيننا" و "ويبقى وجه ربك" وقوله "فى جنب الله" و "استوى على العرش" و "جاء ربك" .. و "وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة" .

أما استدلالهم العقلى فخلاصته : ان الله فاعل ، وكل فاعل لابد ان يكون جسما ، لان ما ليس بجسم لا يصح منه الفعل . وبما ان صحة فعل الله واقعه ، وجب أن يكون الله جسما . ثم انهم اضافوا : اننا لا نستطيع ان نستدل على وجود الله الا من خلال هذا العالم الذى ينقسم الى جوهر وعرض ، وبما ان الله ليس عرضا فينبغى ان يكون جوهر مايبا . اضعف الى ذلك ان احد طرق معرفتنا لله سبحانه هو هذه الاجسام ذاتها ، فلو لم تشببه من وجه لما دلت عليه ، لان الشىء انما يدل على شبيهه . اخيرا فقد قرروا ان الموجودات على ضربين : قائم بنفسه ومحتاج الى محل ، والاول هو الجسم وهو سبحانه قائم بنفسه ، واذلك

فهو جسم (١) .

أما المعتزلة فقد نفت ما ذهب اليه الكراميه واستشهدت بآيات عديده تنفى ان يكون الله جسما ، ذاهية الى اننا لا يجب ان نتخذ من الشاهد دليلا على الغائب وان نسوى بين هذا وذاك تسوية كاملة. وترتب على نفيها الجسمية لله ان نفت الجهة ، لان ما ليس جسما فلا يوجد فى جهة معينة . وعند المعتزله ان رؤية الله غير جائزة لا فى حياتنا هذه ولا فى الحياه الاخرى (٢) .

ولقد وانفت الاشعرية المعتزلة الرأى فيما يتعلق بأن الله ليس جسما ، لان كل جسم له ابعاد ثلاثه : طول وعرض وعمق . أى ان كل جسم لايد ان يكون محدودا متناهيا ، وكل متناه حادث فى حاجة الى من يحدثه . ثم ان الجسم لا يخلو من الاعراض التى هى حوادث وما لا يخلو من الحوادث حادث .... الخ لهذا انكرت الاشاعرة بشدة ان يكون الله جسما . ولكن على الرغم من انها نفت جسمية الله الا انها قررت الجهة متناسية او جاهلة ان القول بالجسيمه معناه القول بالجهة وان القول بهذه يتضمن الجسمية وان نفي الجسمية يتضمن نفي الجهة . ذلك ان الجهة فى النهاية هى المكان والمكان لايد ان يكون فيه "ممكن" . لهذا فان الاقرار بالجهة اقرار بالجسمية ... ومهما سعت كل من الاشاعرة والمعتزله الى تفسير وتأويل الآيات كل على حسب اتجاهه ، فقد بان لابن رشد تهاقت كلا الرأيين . والسؤال الآن ما هو رأى ابن رشد ؟

الواقع ان ابن رشد فيلسوف سعى الى الجمع بين العقل والنقل فى هذه الناحية سعى الى ذلك مهما كلفه من جهد وعناء وخروج على روح النص حينما ومجانبة (١) ابن كرامة الجشمى : شرح العيون ١٠٠ ص ٢١٧ هـ (مخطوط بدار الكتب المصرية) وراجع كذلك ابن حزم الاندلسى : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ٢٠٠ ص ١١٧ المطبعة الادبية بالقاهرة ١٣١٧ هـ .

(٢) راجع على سبيل المثال : شرح الاممول الخمسة للقاضى عبد الجبار ص ٤٤ . ٤٥ . وكذلك ديوان الاممول للنيسابورى ص ٦٠٠ وما بعدها .

العقل حيناً آخر . ذلك ان عملية التوفيق لا بد ان يكون لها ضحايا ، ولا بد ان يضحي بطرف لصالح الطرف الآخر .

ولقد اتخذ فيلسوفنا هنا موقفاً اقل ما يقال فيه انه موقف العامى لا موقف الرجل المتفلسف . فهو يذهب الى ان هذه الفكرة لا ينبغي للمرء ان يبت فيها برأى ، بل عليه أن يؤمن فيها بما جاء به الشرع . فاذا سألنا ابن رشد : هل الشرع يقول بجسمية الله أم لا ؟ أجاب " ان الشرع قد صرح بالوجه واليدين في غير ما أية من الكتاب العزيز . وهذه الآيات قد توهم ان الجسمية هي له من الصفات التي فَضَّلَ فيها الخالق المخلوق ، كما فضله في صفة القدرة والارادة وغير ذلك من الصفات التي هي مشتركة بين الخالق والمخلوق الا انها في الخالق اتم وجوداً . ولهذا صار كثير من اهل الاسلام الى أن يعتقدوا في الخالق أنه جسم لا يشبه سائر الاجسام . وعلى هذا الحنابلة وكثير من تبعهم . ويضيف ابن رشد . والواجب عندي في هذه الصفة ان يجرى فيها على منهاج الشرع فلا يصرح فيها بنفى ولا اثبات . ووجَّابٌ من سأل في ذلك من الجمهور بقوله تعالى . ليس كمثله شيء وهو السميع البصير" (١) .

وينبغي للانصاف ان نقول : لقد كانت هناك عوامل رئيسية دفعت ابن رشد الى اتخاذ هذا الموقف منها :

- ١ - ان اثبات الجسمية أو نفيها عنه سبحانه يحتاج الى مقدمات طويلة وبراہين عديدة لا يستطيع ان يهتدى اليها عامة الناس .
- ٢ - ان الغالبية الكبرى من الناس لا تعرف الا الوجود والعدم الجسم ولا شيء ، فما ليس بمادى أو محسوس عندهم فلا وجود له خاصة وان المتكلمين ذهبوا الى انه لا خارج العالم ولا داخله ، لا فوق ولا تحت .. الخ .

(١) الشورى : ١١ . وراجع الكشف ص ٨٨ - ٨٩ .

٣ - ان عدم اثبات الجسمية لله يؤدي الى شكوك كثيرة تتعلق ببعض الايات التي ورد فيها رؤية المقربين له في الآخرة . ووصفه سبحانه نفسه بوجود وجه ودين وعينين وما الى ذلك . هذا الى جانب ان نفى الجسمية ينفي حركة الله في الآخرة . وهي التي اشير اليها بقوله : وجاء ربك والملك صفا صفا .. (١) .

٤ - انه مع ان الشرع لم يؤكد الجسمية او ينفيها ، فان حديثه عن الروح ايضا لم يكن جازماً فالشريعة لم تجزم . بحقيقة الروح حيث اوضحت العجز البشرى عن ادراك كل شيء فالروح من امر الله وما أوتى الناس من العلم الا القليل .

ابن رشد اثن كعادته متردد بين النفي والاثبات لكنه عاد في النهاية فقال الى القول بان الله نور على نور وأنه نور السموات والارض . وهذا ما أكدته النصوص الدينية والاحاديث النبوية فقد سئل الرسول عن ما اذا كان قد رأى الله فأجاب بقوله نور أنى أراه لكن نسي ابن رشد ان حديثه عن الله بحسبانه نوراً يؤدي به الى القول بأنه جسم .

على أنه بعد أن ترك ابن رشد مسألة الجسم معلقة كان من الواجب عليه ايضا ان يترك مسألة الجهة كذلك لكون أن يقطع فيها برأى ، أو على الاقل كان من الواجب عليه وقد نفى الجسمية ان يقول بعدم وجود الله في جهة ما لكن ابن رشد تابع هنا في مسألة الجهة الاشاعرة . ولقد أخطأ . صحيح ان الجهة متميزة عن المكان لكن هذا التميز لا ينفي البتة انها ملازمة له . فكل موجود في جهة انما هو في الحقيقة متمكن فيها . المهم هو ان ابن رشد قد آمن بالجهة وقد استند الى نصوص قرآنية منها .

- ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانيه . (٢)

- يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره الف

(١) الفجر : ٢٢ .

(٢) الحاقة : ١٧ .

سنه مما تعلمون . (١)

- تعرج الملائكة والروح اليه . (٢)

- أأنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور . (٣)

ويبين ابن رشد ان الأديان السماوية كلها تذهب إلى ان الله موجود في السماء وأنه يوحى من هناك إلى عباده ورسله عن طريق ملائكة مكلفين . ثم ان قصة الاسراء والمعراج لدليل قاطع على وجود الجهة والفوقية . قال ابن رشد . فقد ظهر لك من هذا أن اثبات الجهة واجب بالشرع والعقل ، وأنه الذي جاء به الشرع وانبنى عليه . وان إبطال هذه القاعده ابطال للشرائع ، وان وجه العسر في تفهيم هذا المعنى مع نفى الجسمية هو انه ليس في الشاهد مثال لهم ، فهو بعينه السبب في ان لم يصرح بالشرع بنفى الجسم عن الخالق سبحانه ، لان الجمهور انما يقع لهم التصديق بحكم الغائب متى كان ذلك معلوم في الوجود في الشاهد - (٤)

!! أما فيما يتعلق بمسألة الرؤيه وهي التي ترتبط ارتباطا وثيقا بمسألتى الجسمية والجهة ، فان ابن رشد يرى القول برؤية الله في الآخرة . وأنه ينبغي أن يبلغ الجمهور بهذا . فيما ان الله نور وان له حجابا من نور ، كما جاء في القرآن والسنة الثابتة فان المؤمنين سيرونه في الآخرة كما نرى الشمس .

(١) البقرة : ٥٠ .

(٢) المعارج : ٤ .

(٣) الملك : ١٦ .

(٤) الكشف : ٩٦ .